

فاس عاصمة الأدارسة

الأستاذ مصطفى بعيو الطرابلسي

(نعمة ما نشر في العدد الماضي)

بدأ إدريس في إنشاء هذه المدينة ببناء السور أولاً وتشجيعاً للعمال لإنجاز مشروعه اشترك بنفسه معهم . ويمكننا أن نستدل من وصف كتاب « زهرة الآس في بناء مدينة فاس »^(١) لأبي الحسن الجزائري الكيفية ببناء السور أن المدينة كانت على شكل دائري وأن أبوابها قد تعددت حتى زادت عن السبعة . زل إدريس وحاشيته في المكان الذي عرف فيما بعد بمدوة الأندلس بعد أن خصص مكاناً لإقامة الرضى شرق المدينة حتى تساعد الرياح الغربية على إبعاد رائحتهم ، وحتى يكون تصرفهم من الماء بعد خروجه من المدينة فلا يصل ضررهم إلى سكانها . وكما هي العادة المتبعة في بناء المدن الإسلامية الجديدة شرع إدريس في بناء مسجد الشرفا في عدوة الأندلسيين .

واتبع إدريس خطة حكيمة لتعمير عاصمته الجديدة ذلك أنه نادى في الناس بأن كل من بنى موطأ أو اغترسه قبل بناء السور فهو له هبة لله فتبارى الناس في ذلك فأكثروا من العبادة ونوعوا في الفرس حتى أصبحت المحاصيل وفيرة مختلفة رخيصة أسعارها مما ساعد على ازدياد عمرانها ما كان يقع في ذلك الوقت من حوادث في الأندلس إبان إمارة الحكم بن هشام مما ترتب عليه هجرة بعض الأندلسيين إلى فاس على أثر ثورة أهل الربض وما أنزله بهم من عقاب صارم .

خصص إدريس لهؤلاء المهاجرين حياً خاصاً عرف فيما بعد بمدوة الأندلسيين وهو إلى الشرق من المدينة وأصبح ينزل فيه كل من ترك الأندلس واتخذ المغرب وجهته فكانه فرع الشجرة قد نبتت في الأندلس ؛ كما نزل الوافدين عليه من القبروان بحى خاص بهم يعرف فيما بعد بمدوة القرويين فكانت مدينة فاس

(١) تولى نشر هذا الكتاب الأستاذ Alfred Bel مدير مدرسة سطاس بالجزائر باللغة العربية والفرنسية غير أن الطبعة الفرنسية قد قدم لها بترجمة المؤلف هذا الكتاب وتحليل شخصيته وهو مكتبة جامعة دزاد الأول (٣٨٣٠ ت) .

عبارة عن حين اختص كل منهما بفريق خاص . وكما هو الملاحظ في نشأة المدن الجديدة فإن فاس سرعان ما ازدهرت وأصبحت محط رجال كثير من العلماء والفقهاء حتى ينالوا حظ التقرب من رجال هذه الدولة الجديدة فاشتهر اسمها في الآفاق وأصبحت مقصد مسلمي مرا كس منذ نشأتها وعلى كل حال إليها يرجع الفضل في تخليد ذكرى دولة الأدارسة ولولاها ما انتبه إليهم المؤرخون .

ومن محاسن هذه المدينة موقعها الفريد ؛ فهي بعيدة عن الصحراء المجردة وعن البحار وأخطارها ولكنها تتصل بهما بطريق غير مباشر . تتصل بالصحراء بطريق برى وبالبحر بنهر سبوا . ثم إن هذا النهر أيضاً يشقها نصفين وتشعب جداوله بين دورها وأحياها ثم يخرج منها وقد حمل أقدارها وبعد أن يدير رحبها . ولهذا النهر كذلك ميزة خاصة في مياهه التي تساعد على شفاء كثير من الأمراض وأخيراً يجب ألا ننسى أنه إلى القرب منها توجد كثير من مقاطع الأحجار وكميات وافرة من الكلس تساعد على نشاط حركة البناء .

وبعد أن أتم إدريس بناء مدينته أخذ يخرج لغزو ما جاوره من بلاد على فترات منتظمة منتظمة واسكن النية لم عمله إذ مات في ربمان شبابه قيل مسموماً وقيل إنه شرب بحبة عنب فمات . واختلفت الروايات في مكان دفنه فبعضها يقول في مسجد الشرفا بفاس وبعضها يقول إنه دفن بجوار أبيه في ويلي . وبموتة أخذت دولة الأدارسة في الانحلال ذلك أن أولاده قد تقاسموا البلاد مما ترتب عليه وقوع الشجناء والتنافس بينهم ومن ثم إلى انقسام الدولة وتفككها . ومما زاد الطين بلة تلك الأخطار التي كانت تحدق بالدولة من الخارج .

فالفاطميون ومن قبلهم الأغالب في أفريقية والمغرب الأوسط والأمويون في الأندلس وكل يعمل على محوها . وهكذا ترتب على هذا الانحلال السياسي الانحلال حالة مدينة فاس فأفل نجمها بعد أن سطع فترة من الزمن وأصبح لا يقصدها إلا من أراد التبرك بزيارة بعض قبور الأدارسة لذلك لا نجد إذا رأينا من الأمثلة المشهورة « فاس بلد بلا ناس »^(١)

أما لماذا اختار إدريس الثاني هذه التسمية « فاس » لمدينته

(١) معجم البلدان ط دار السادة ص ٣٣٠ : لياقوت

على صورة جارية منقوش على صدها بالخط الهندي هذا موضع حمام عمر ألف سنة ثم خرب فأقيم موضعه بيعة العبادة» (١) وبذكر لنا الجزنائي رواية أخرى ينقلها عن صاحب الاستبصار وهي أن الإمام إدريس عندما شرع في بناء مدينته كان يعمل فيها بيده كما سبق ذكره فصنع الله فاس من ذهب وفضة فكان الإمام إدريس يحسكه بيده ويبدأ به الحفر ويختط به الأساسات للامثلة فكثير ذلك على ألسنتهم طوال مدة البناء فكان القملة يقولون هاتوا الفاس ، خذوا الفاس ، احفروا بالفاس . فسميت مدينة فاس . وربما كانت هذه الرواية أقرب إلى الصحة على الرغم من أن الجزنائي لا يأخذ بها ولا يؤديها بل يمارسها لأنه يرى فيها ما يتنافى مع تمسك الإمام إدريس بمقيدته الإسلامية التي تتنافى مع استعمال الذهب بهذا الشكل وعلى أي حال فإن استعمال الذهب أو الفضة بهذا الشكل ما زالوا معمولاً به حتى يومنا هذا عندما يقوم بعض الملوك أو من يمثلهم في الاحتفال بوضع الحجر الأساسى لأية منشأة جديدة ؛ لذلك نراه ينتقل إلى ذكر رواية أخرى مؤداها أنه لما بدأ العمال بحفر أساسها من ناحية الجنوب وجدوا ناسكاً كبيراً طوله أربعة أشبار وسعته شبر واحد وزنته ستون رطلاً من عمل الأوائل فسميت المدينة به .

بقيت كلمة صغيرة عن جامع القرويين ذلك أنه لما كثر على مدينة فاس الواردون أيام يحيى بن محمد بن إدريس كان ممن قدم عليها من القيروان محمد بن عبد الله الفهري القروي ونزل كما هو المتبع بمدونة القرويين مع أهل بلده . وعند وفاته ترك ابنتين قد تحصل لهما ميراث كثير رغبتا أن تصرفاه في وجوه البر فلما علمتا أن الناس في حاجة لبناء جامع كبير في كل عدوة من فاس لصيق الجامعين القديمين بالناس شرعت إحداهما في بناء جامع عدوة القرويين أما الأخرى فقد تكفلت ببناء جامع الأندلس . وفي سنة ٣٠٧ هـ أزيلت الخطبة من جامع الشرفاء لصدوره وحل محله في ذلك جامع القرويين لاتساعه وكبره والذي أصبح ملحق العلماء والطلاب لسماع بعض الدروس الدينية فيه وما زالت حلقاته عامرة إلى يومنا هذا .

محمد طه يحيى بغير الطرابلسي

فقد تمددت في ذلك الروايات وإن اختلف بعضها في التفاصيل فإن أغلبها قد أجمعت على وجود مدينة قديمة قبلها قد طمرت معالمها وانمحت آثارها حتى جاء إدريس الثاني فجدها في شكل مدينة فاس . فقيل (١) إن هذا الاسم قد اختاره لما إدريس عقب ذهابه لرؤية المكان الذي تم اختياره إذ صادفه رجل اسمه «فارس» وربما لتموض في كلام هذا الرجل فهم إدريس اسمه على أنه «فاس» فسمى المدينة باسمه . ولكن هذه الروايات ضعيفة ، ولا يمكن الأخذ بها . ويرى صاحب الدرر السنية (٢) ويشاركه في هذه الرواية الجزنائي (٣) أن أحسن ما يمكن أن نملل به هذه التسمية أن الإمام إدريس عندما خرج لمعاينة المكان الذي اختير لمشروعه مر به شيخ كبير من رهبان النصراني قد زاد عمره على المائة والخمسين سنة كان مترهبناً في صومعة قريبة من تلك الجهة ، فوقف على مولانا إدريس وسلم عليه ثم قال أيها الأمير ما تريد أن تصنع بين هذين الجبلين . قال أريد أن أختط مدينة هنا يعبدها الله تعالى بها ، ويبنى بها كتابه ، ويقام بها حدوده . قال أيها الأمير إن لك عندي بشري . قال : وما هي أيها الراهب ؟ قال : إنه أخبرني راهب كان قبل في هذا الدير له منذ توفي مائة سنة أنه وجد في كتاب علمه أنه كان بهذا الموضع مدينة تسمى «ساف» خربت منذ ألف سنة وأنه يجددها ويحيي آثارها ويقم دارسها رجل من آل بيت النبوة يسمى إدريس ، ويكون له شأن عظيم وقدر جسيم لا يزال دين الإسلام قائماً بها إلى يوم القيامة . فقال مولانا إدريس : الحمد لله أنا إدريس وأنا من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا بانيها إن شاء الله تعالى . فلما بناها قيل له : كيف تسميها ؟ قال : باسم المدينة التي كانت قبلها «ساف» ولكن أقلب اسمها الأول ونسبها بقلبة وسمتها «فاس» . وهذه الرواية بتفاصيلها ضعيفة لا أخذ بها لتعارض بعضها مع الحقائق العامة المتفق عليها ولكن في الغالب أنه كانت هناك مدينة قد انبثرت معالمها وهذا ما دفع الجزنائي إلى القول «وبدل على ذلك ما رواه البرنس أن رجلاً من اليهود احتفر أساس دار من قنطرة عنيزة من المدينة المذكورة ... فوجد في الأساس قطعة رخام

(١) معجم البلدان ط دار السادة ص ٣٣٠ : لياقوت .

(٢) ص ٧٣ .

(٣) ص ١٨ .